

البلاغة العربية قديما وحديثا قراءة معاصرة في النشأة والتطور في الدرس العربي والغربي

Arabic rhetoric - ancient and modern - a contemporary reading of origin
and development in the Arab and Western lesson

محمد بشيرباي

كلية العلوم الاسلامية جامعة الجزائر 1

(b.mohamed@ens-lagh.dz)

تاريخ الاستلام: 2024/11/02 تاريخ القبول: 2024/12/01 تاريخ النشر: 2025/01/01

الملخص: البلاغة من أهم العلوم التي وضعت لخدمة القرآن، ولا يخفى على أحد دورها في بيان أساليب العرب، وما تميّزت به من ذوق وجمال فكانت بذلك محط أنظار العلماء منذ القديم فلقبت منهم اهتماما واسعا؛ إلا أنّها - في مراحل تطورها - عرفت انحرافا في مسارها التاريخي فاعتبر الدارسون المحدثون البلاغة القديمة محدودة نظرا لاعتمادها على المحسنات البديعية. فنادوا بإعادة النظر في البلاغة بربطها بالحجاج لإعادة امبراطوريتها المفقودة وحيائها من جديد... ومن هنا جاء التفكير عند البلاغيين العرب في إعادة النظر الشمولية للبلاغة بمختلف تجلياتها ومن المقاربات التنظيرية العربية الجادة... فجاءت فكرة البحث في أهمية البلاغة وارتباطها الوثيق بقضية الإعجاز القرآني، وكثرة المؤلفات التي تناولت قضية التجديد البلاغي انطلاقا من الموروث القديم وضرورة فهم الآليات التي يقوم عليها التراث... وي طرح هذا البحث جملة من الأسئلة ويدور حول فكرة جوهرية تتمحور في إمكانية ظهور بلاغة عامة تجمع بين معطيات البلاغة القديمة والحديثة، وهل نحن بحاجة إلى بناء بلاغة جديدة؟ وفيما تكمن جهود المعاصرين في المشروع البلاغي؟ وللإجابة على هذه التساؤلات سأتناول:

أولا: مفهوم البلاغة في التراث العربي.

1. مرحلة العصر الجاهلي.
2. مرحلة البلاغة في ظل القرآن ومؤلفاته.
3. مرحلة النضج و الازدهار.
4. مرحلة الانحراف و الجمود.

ثانياً: مفهوم البلاغة في الدرس البلاغي الحديث.

1. إشكاليات الاصطلاح بين الدرس العربي والغربي.

2. تحولات في مفهوم البلاغة.

3. البلاغة في التقليد الغربي.

4. البلاغة في السياق العربي.

الكلمات المفتاحية: البلاغة؛ الدرس البلاغي الحديث؛ إشكاليات الاصطلاح؛ التحولات.

Summary:

Rhetoric is one of the most important sciences that was developed to serve the Qur'an. It is no secret to anyone also its role in explaining the methods of the Arabs, and what was distinguished by its taste and beauty. Thus, it was the focus of attention of scientists since ancient times. Modern scholars considered the old rhetoric limited in view of its reliance on buddhist improvements ... Hence the thinking of Arab rhetoric regarding the comprehensive review of rhetoric with its various manifestations ... The idea of the research revolves around the importance of rhetoric and its close connection to the issue of the Quranic miracle ... So do we need to Building New Agha? What are the efforts of contemporaries in the rhetorical project? Is Arabic rhetoric valid for development?

key words:

Rhetoric ; Modern rhetorical lesson ; Problems of convention ; Transitions .

المؤلف المرسل: محمد بشيرباي

1. مقدمة

البلاغة من أهم العلوم التي وضعت لخدمة القرآن، ولا يخفى على أحد دورها في بيان أساليب العرب، وما تميّزت به من ذوق وجمال فكانت بذلك محط أنظار العلماء منذ القديم فلقبت منهم اهتماما واسعا؛ إلا أنّها في مراحل تطورها عرفت انحرافا في مسارها التاريخي فاعتبر الدارسون المحدثون البلاغة القديمة محدودة نظرا لاعتمادها على المحسنات البديعية. فنادوا بإعادة النظر في البلاغة وربطها بالحجاج لإعادة امبراطوريتها المفقودة وحيائها من جديد... ومن

البلاغة العربية قديما وحديثا قراءة معاصرة في النشأة والتطور في الدرس العربي والغربي

هنا جاء التفكير عند البلاغيين العرب في إعادة النظر الشمولية للبلاغة بمختلف تجلياتها ومن المقاربات التنظيرية العربية الجادة. فجاءت فكرة البحث في أهمية البلاغة وارتباطها الوثيق بقضية الإعجاز القرآني، وكثرة المؤلفات التي تناولت قضية التجديد البلاغي انطلاقا من الموروث القديم وضرورة فهم الآليات التي يقوم عليها التراث.

أولاً: مفهوم البلاغة في التراث العربي.

تعتبر المفاهيم أحد المحكمات الرئيسية في تكوين البناء المعرفي حيث من خلالها يزيد اهتمام ودافع الطلاب للتعلم، وربما يرجع السبب الأساس في اختلاف الفكر العربي الإسلامي بين المثقفين والباحثين في مختلف المجالات إلى تشوش المفاهيم وعدم استخدامهم للتعريف الجامعة المانعة للمصطلحات، إذ تبرز أهمية اصطلاح «البلاغة» عند الكشف عن غموض مفهومها وضبطه بمنهج سليم واضح حسب الشروط السياقية والنسقية المتعارف عليها وذلك من خلال الربط بين المفاهيم الجديدة وبين المعلومات السابقة.

1 مرحلة العصر الجاهلي:

حين نعود إلى أخبار النقد العربي في نشأته الأولى أو إلى أخبار أسواق العرب الأدبية أو إلى المذكرات الادبية التي كانت تدور في حضرة الملوك يعرف الكثير من تلك الاقوال والحكم (المبارك، 1968)، وليس بالبعيد أن يكون العرب في الجاهلية قد عرفوا بعض مسائل البلاغة والفصاحة، ومما يروى في ذلك أن النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة حمراء بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها فأنشده الأعشى ميمون بن قيس أبو بصير، ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصاري:

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُيْلَمَعْنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا
وَلَدُنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنِي مُحَرَّرٍ فَأَكْرَمَ بَنَا خَالًا وَكَرَّمَ بَنَا ابْنَمَا

فقال له النابغة: أنت شاعر ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، وغنما قال له، أقللت جفانك وأسيافك، لأن الجفانات لأدنى العدد والكثير جفان وكذلك أسياف لأدنى العدد والكثير سيوف، وإنما قال له فخرت بمن ولدت لأنه ترك الفخر بالآباء وفخر بمن ولد نساؤه (الصعيد، 1991). وبعبارة أوضح فإن البلاغة كانت أمرا فطروا عليه أو أمرا هدتهم إليه سليقتهم وعشقتهم نفوسهم وألفته ألسنتهم وأذانهم، فهم يعرفونه ولا يكادون يختلفون عليه ولكننا لم نعرف لهم كلاما فيه يبين عناصر البلاغة التي كانوا يتوخون (المبارك، 1968)، بمعنى آخر أنهم لم يقسموا البلاغة على تلك الأقسام المعروفة الآن.

2 مرحلة البلاغة في ظل القرآن الكريم ومؤلفاته

1.2. البلاغة في ظل القرآن:

سمع العرب آيات الكتاب المبين فشهدوا بما عرفوا من أساليب البلاغة و حاروا في تحليل دهشتهم و إعجابهم به و هم أرباب البلاغة، حتى قال قائلهم: " إنه سحر ساحر..." وعن ابن عباس قال جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقراً عليه القرآن فكأنه رقى له فلاغ ذلك أب جهل فأتته قال يا عموا إن قومك يجمعوا لك مال ليعطوك له بأن تأتي محمد لتعرض لما قاله؛ قال: " قد علمت قريش أنني من أكثرها مالا قال فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له قال فاذا أقول والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا أرجزه ولا بقصديه ولا بأشعار الجن، والله وما يشبه الذي يقول شيء من هذا والله إن لقوله الذي يقول حلوة وأن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، فإنه لا يعلو ويعلى عليه، و إنه لا يحطم ما تحته. قال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال فدعني حتى أفكر فلما فكر قال هذا سحر يؤثر يأثره من غيره. الآية قال تعالى: "إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِذَا سِحْرٌ يُؤْتَرُ" (24) (سورة المدثر الآية 24). والعرب إنما عرفوا بلاغة في القرآن معرفة الفطرة السليمة لا معرفة العلم و الاكتساب و راحوا و يتدبرون أمرهم بينهم فيعللوا هذا الكلام المعجز بأنه سحر يؤثر (المبارك، 1968، الصفحات 32-33).

2.2. البلاغة في المؤلفات القرآنية:

من الكتب التي ألفت حول القرآن وعنيت بتفسير غريبه و ذكر معانيه ككتاب معاني القرآن الفراء ت207، وهو كتاب عني فيه صاحبه بالتخريج النحوي للآيات كما عني بالشرح الألفاظ شرح لغوي تأوديه شواهد الشعر وأوجه الاستعمال المعروفة. ومنها كتب عنيت بتأويل و بيان الأساليب القرآنية من الناحية اللغوية ككتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى ت210، وقد كانت كلمات المجاز عنده مرادفة لكلمة التفسير أو التأويل وكان الكتاب بياناً لأساليب القرآن اللغوية في التعبير، وكان من تلك المؤلفات كتب أته أصحابها إلى الإعجاز يحاولون كشفها و معرفة أسرارها (المبارك، 1968، صفحة 39). ولعل من أول من تناول علوم البلاغة بالبحث هو الجاحظ ت255، وكان أول الذين تحدثوا عن موضوع الإعجاز وعللوه بما في القرآن من نظماً بليغ، وما تأليفه من تركيب بديع بل إنه أفرد لذلك كتاباً سماه نظم القرآن، ومع أن هذا الكتاب لم يصل إلينا؛ فإننا نجد في عنوانه اتجاه الجاحظ في تحليل الإعجاز وتفسيره، وقد كشف الجاحظ اتجاهه صراحة حين ذكر كتاب نظم القرآن؛ وقال إنه وضعه في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب و بديع تركيبه (المبارك، 1968، الصفحات 32-42). وقد أشار في كتابه البيان و التبين إلى بعض المسائل من هذه المسائل ويمكن ترتيب ما جاء في هذا الكتاب إلى أربعة فصول قصار:

البلاغة العربية قديما وحديثا قراءة معاصرة في النشأة والتطور في الدرس العربي والغربي

1. الكلام على مخارج الحروف، ثم عيوب التي سبها اللسان أو الأسنان أو ما قد يصيب الفم من التشوه.

2. الكلام على سلامة اللغة وصلة بين الالفاظ بعضها ببعض و عيوب النشأة من تنافر الحروف تنافرا يمجح السمع.

3. الكلام على الجملة والعلاقة بين المعنى واللفظ ثم على الوضوح والإيجاز والإطناب والملائمة بين الخطبة والمستمعين لها والملائمة بين الخطبة وموضوعها.

4. الكلام على هيئة الخطيب وإشاراته (الصعيدي، 1991، صفحة 35).

ليست المرحلة السابقة على ما رأينا مرحلة تأليف بلاغي وإنما هي في الحقيقة مرحلة التمهيد للتأليف البلاغي أما مرحلة التأليف البلاغي قد بدأها عبد الله بن المعتز حين وضع كتابه البديع وكان أول كتاب يؤلف في البلاغة و يجمع فنونها (المبارك، 1968، صفحة 65)، حيث جعل البديع في سبعة عشرة نوع منها : الاستعارة، الكناية، التورية، التجنيس، السجع (الصعيدي، 1991، صفحة 35)، وقد مضى منذ السطور الأولى فيه يعلن أنه صنفه ليدل على دلالة قاطعة على إنما يكثر منه المحدثون مما يسعى به بديعا موجود من قديم في القرآن والحديث وكلام الجاهليين (ضيف، 1995).

ثم توالى من بعده المؤلفات في مختلف اصناف الفنون التي تمس جوهر البلاغة. فجاء عيسى بن علي الرماني أحد اعلال المعتزلة في عصره و الذي ألف كتاب النكت في الإعجاز وقد كتب رسالته هذه جوابا عن سؤال لأحدهم وقد طالب لتفسير تلك النكت في إجمال وبدون تطويل في الحجاج ويستهل الرسالة برد تلك النكت إلى سبع جهات وهي:

1. ترك المعارضة مع توافر الدواعي شددت الحاجة التحدي لكافة..

2. الصرفة.

3. البلاغة.

4. الاخبار السابقة عن الامور المستقبلية.

5. نقض العادة.

6. قياس القرآن بكل معجزه.

7. ما يهمننا منه حديثه عن البلاغة.

ويقسّم البلاغة إلى ثلاث طبقات: عليا ووسطى ودنيا؛ العليا: هي بلاغة القرآن، أما الوسطى والدنيا: هي بلاغة البلغاء حسب تفاوتهم في البلاغة، جعل البلاغة عشرة أقسام وهي: الإيجاز التضمن التشبيه الاستعارة التلاؤم الفواصل التجانس التصريف المبالغة حسن البيان، ويقول شوقي ضيف: "وواضح أنه اضاف في حديثه عن البلاغة إضافات جديدة إلى من سبقه فقد حدد بعض فنونها تحديدا نهائيا ورسم لها أقسامها رسما دقيقا" (ضيف، 1995، صفحة 107).

ثم جاء بعده أبو بكر الطيب الباقلائي ت403 في كتابه إعجاز القرآن وهو من أعلام المتكلمين وهو على مذهب الأشاعرة، ويستهل كتابه بالتعريض لمطاعم الملاحنة على أسلوب الذكر الحكيم؛ مبيّناً أنّ الحاجة للحديث في إعجاز القرآن أمس للمباحث اللغوية والنحوية، كما أنه يرد بعنف على الذين يرون أنّ الإعجاز يكمن فيما قالوا بالصرفة أو بعبارة أخرى بصرف العرب عن معارضتهم؛ لأن ذلك يقتضي أن المعارضة ممكنة وإنما منع منها لأجل الصرفة وبذلك يسقط أن يكون القرآن معجز في نفسه وبلاغته وواضح أنه إنما يرد عن المعتزلة من أمثال النظام (ت221 هـ) صاحب الفكرة و الروماني الذي عد الصرفة من وجوه الإعجاز القرآن. ويفتح فصلاً لبيان الإعجاز القرآن ورأي الأشعار من أصحابه ويردها على ثلاث وهي:

1. تضمن الأخبار عن الغيوب.

2. ما فيه من القصص الديني و السير الأنبياء مما وارثوه الكتب السماوية.

3. بلاغته.

ويذهب إلى مرجع الإعجاز القرآن في نظمه و أسلوبه العجيب المباني لأساليب العرب في الشعر و النثر وما يطوى فيه من السجع (ضيف، 1995، الصفحات 107-109).

3 مرحلة النضج والازدهار:

بلاغة التأليف البلاغي غاية بعيدة من الإحكام والنضج في القرن الهجري الخامس و ذلك على يد الإمام الجرجاني صاحب كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

عبد القاهر الجرجاني ت471 : وهو ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان الجرجاني، برع في علوم العربية، وألّف في النحو الإعجاز والبلاغة، وألّف كتب تشهد له بالفكر النافذ والعلم الواسع والدوق المرهف كما تشهد له بطول الباع و سداد الرأي في النحو البلاغة و النقد، حيث بينا في أول كتابه غلط الناس في فهم النحوي و تصغير شأنه مع أن (الألفاظ مغلقة على معانيها حتي يكون الإعراب والذي يفتحها وأن الأغراض كامنة فيها حتي يكون هو المستخرج لها و إنه هو المعيار الذي لا يتبين نقصان الكلام و رجحانه حتي يعرض عليه و المقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتي يرجع إليه، ثم يشرع في شرح نظريته المعروفة بنظرية(النظم) و ما النظم عند الجرجاني إلا إتلاف الألفاظ ووضعتها في جملة الموضوع الذي يفرضه معانيها النحو فالمعنى النحو للكلمة هو الذي يفرض تقديمها او تأخيرها وتعريفها أو تنكيرها ذكرها أو حذفها، ثم يخلص إلى علم البيان في كتابه أسرار البلاغة فيبين فروع هذا العلم و يقول: " ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا و أسبق فرعا و أحلى جنى و أعزب وردا و أكرم نتجا و أنور سراجا من علم البيان" ومع ذلك فهو العلم الذي اصيب بالضميم، ومني بالحيف، و غلط في معناه الناس، و يبين الجرجاني وجه الغلط في فهم معنى البلاغة و الفصاحة و أن الأمر ليس من جهة النقص في اللغة أو الصفات الصوتية للمتكلم و إنما هناك دقائق وأسرار لا بد من معرفتها من الروية و الفكر وبهذه الدقائق

البلاغة العربية قديما وحديثا قراءة معاصرة في النشأة والتطور في الدرس العربي والغربي

يتفاضل الكلام و بها يدرك علم القرآن، ويخلص على علم المعاني في كتابه دلائل الإعجاز حيث يشرح الجرجاني مزايا النظم مبينا أنها ترجع إلى المعاني والأغراض، لأن اتساق الألفاظ وترتيبها إنما يكون بحسب ترتب معانيها في النفس و أوضاعها في العقل (المبارك، 1968، الصفحات 91-94). فكان بهذا أول من وضع أسس طريقة التفسيرية في تدوين هذه المسائل فسارة بها أقرب إلى الفلسفة منها إلى الأدب (الصعيد، 1991، صفحة 36)

جار الله الزمخشري ت538هـ: قبل أن يغمض الرداء عين الإمام الجرجاني بنحو أربع سنوات ولد عالم آخر في سنة 467؛ قام يحمل عنه عبء العمل البلاغي ويتم رسالته في شرح سر إعجاز القرآن و بيان دقائق الجمال الأدبي؛ وهو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الإمام المفسر واللغوي النحوي، والأديب البلاغي وصاحب التفسير الكشاف ومعجم أساس البلاغة و كتاب المفصل المشهور في النحو، تسلم الزمخشري إرث الجرجاني الضخم وما اشتمل من آراء بلاغية شرح الجرجاني بها وجوه الإعجاز القرآن، وعلل بها صور الجمال الأدبي فوجد الزمخشري في كل ما يرضي نزعة العقلية وهو العالم المعتزل وجود ما يرضي إحساسه بالجمال وتذوقه لصوره وهو الأديب الذواق، فانصرف إلى وضع تفسير إلى القرآن الكريم يكشف به عم في آيات الكتاب المعجز من أسرار بلاغية ودقائق معنوية، وأتى في ذلك بما لم يسبق إليه، والملفت للنظر أن الزمخشري كان يشير إلى الفصل بين علمي المعاني والبيان؛ فيسمى كلا منهما علما كما كان يستعمل لفظ كل منهما علما على المباحث المتصلة به. وعلى هديه سار العلماء من بعده فاستعملوا هاتين "المعاني والبيان" علمين على العلمين البلاغين المعروفين بعد أن كان السابقون يستعملون البلاغة والفصاحة والبيان؛ على أنها ألفاظ مترادفة كما هو الأمر عند الإمام الجرجاني، وسار الزمخشري على منهج الجرجاني في تحليلاته العقلية الذوقية و تطبيقاته البلاغية حتى قيل إن الزمخشري متمم لعمل الجرجاني في البلاغة و الحق أن بين هذين الإمامين صلة واضحة و شها يتجلى في ثلاثة أمور:

1. أن كلا من الجرجاني و الزمخشري ذو نزعة عقلية تفكير منطقي و أسلوب منهجي.
2. أن كلا منها أديب يتذوق الجمال و يحسه فيعرف كل الجميل منه من المستهجن.
3. فهو أن البلاغة عند كل منهما لم تكن بلاغة جافة قائمة على الحدود و التعريفات و إنما كانت بلاغة تطبيقية تحيا في النماذج البليغة و تلتصق بالنصوص الأدبية و ان كلا منهما كان يحاول أن يأخذ بيدك ليفتح قلبك و عينيك على الجمال ويثير فيك الرغبة في استشعاره و تذوقا تطمئن إليه النفس و تخضع و يرضى به العقل و يقنع (المبارك، 1968، الصفحات 105-107).

4 مرحلة الانحراف والجمود:

ومضت سنون خلف بعد علماء البلاغة البلاغاء خلف أضاعوا الأصالة ولم يدركوا مكانة الذوق والحس في البلاغة وفي تقويم آيات الجمال الأدبي، كان معظم هؤلاء من علماء البلاغة؛ ولكنهم لم يكونوا بلغاء في أنفسهم ولم يكونوا متذوقين ولا قادرين على إشعارنا بمواطن الجمال إذا هم تذوقها فجردوا من آثار سلفهم ما يتصل بالأحكام والقواعد، ثم صنفوا ذلك مستعينين عليه كل بحسب ثقافته بالفلسفة والكلام والمنطق وفرعوا وقسموا؛ حتى جاءت البلاغة على أيديهم خالية في معظم الأحيان مما كانت به بلاغة جاءت مجردة من أسباب الحياة جافة لا روح فيها معقدة لا بيان يوضحها مقيدة بالحدود إذا هي غادرتها فألى جدل فلسفي لا أثر للبلاغة الحية فيه. وكان مما زاد في إساءتهم إلى البلاغة إسهام أدباء عصورهم بما أمدهم به من أدب هزيل و ذوق سقيم (المبارك، 1968، صفحة 108).

لقد ابتدأ فخر الذين الرازي ت606هـ صاحب كتاب "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" حيث لخص كتاب الجرجاني تلخيصا اخذ، يبتعد بالبلاغة عن النصوص و يقترب بها من الحدود و القوانين والأحكام والقواعد.

ثم جاء بعده أبو يعقوب محمد السكاكي ت626هـ هو كما قال عنه معاصره ياقوت في معجم الأدباء: علامة إمام في العربية والمعاني والبيان والأدب والعروض والشعر ومتكلم فقيه متفنن في علوم شتى، وضع كتابه مفتاح العلوم وقسمه إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول منها للصرف، والقسم الثاني للنحو والقسم الثالث للبلاغة وما تحتوي عليه من علوم المعاني والبيان والبديع وما يلحق بهذه العلوم من قافية وعروض. وما وضعه السكاكي في مفتاح العلوم من تقسيم لعلوم البلاغة هو الذي أخذ به علماء البلاغة من بعده وهو الذي استقرت عليه هذه العلوم إلى يومنا الحاضر (المبارك، 1968، الصفحات 110-111).

ثم جاء الخطيب القزويني ت739هـ وهو محمد بن عبد الرخمان بن عمر ابوا المعالي جلال الذين القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق ولد بالموصل لكن أصله من قزوين له كتاب نفيس الإيضاح في علوم البلاغة. وهو من أحسن ما صنف المتأخرون في البلاغة، وقد قال في أوله: "أما بعد فهذا كتاب في علم البلاغة و توابعها ترجمته ب الإيضاح و جعلته على ترتيب مختصري الذي سمته تلخيص المفتاح و بسطت فيه القول ليكون كالشرح له فأوضحت مواضعه المشكلة و فصلت معانيه المجملة و عمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه مفتاح العلوم وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمة الله في كتابه " دلائل الإعجاز و أسرار البلاغة" و إلى كله ورتبتها حتى استقر كل شيء منها في محل و أضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكري ولم أجده لغيري فجاء الله جامعا لأشتات هذا العلم" (المبارك، 1968، صفحة 113). حيث لخص فيه جزء البلاغة فقط تلخيص المفتاح هو الذي نظمه الأخضري (الجوهر المكنون) (الكلمي، 2017).

ثانياً: مفهوم البلاغة في الدرس البلاغي الحديث

لقد أدّت الثّورة الّتي انصبت على البلاغة في العصر الحديث إلى تغيير في المفهوم الكلاسيكي والّذي تحدّث عنه ابن خلدون في مقدّمته بأنّه لا يوجد تعريف جامعاً مانعاً للبلاغة عند العرب فقال: "ليس في تعريف القدماء ما يعطي صورة واضحة للبلاغة" (خلدون، 2004).

ويرى حمّادي صمود أنّ هناك كثيراً من التّعريفات عند القدماء والّتي لها مداوات تختلف عن الاستعمالات الوظيفيّة الحديثة وإنّما لم تخرج عن معناها اللّغوي " الفصاحة والإبانة " (صمود، 1981)، كما أنّ كلمة "ريطورية" توظّف للدلالة معنّيين، وهما: "المعنى الاستثنائي التّعبري وذلك حين تصف الكلام والمتكلّم، والمعنى الوصفي العلمي وذلك حين تتوجّه إلى الخصوصيّات العلميّة للكلام البليغ" (جلال، 2016).

وركّز العمري على المعنى الثّاني وهو المفهوم الوصفي، كما أسهم من خلال مشروعه المتمثّل في البحث عن بلاغة عامّة تجمع بين معطيات البلاغة القديمة والجديدة فهو يرى أنّها: « علم كلي يقتضي ضبطه للإحاطة بعلوم اللّسان وعلوم الإنسان المختلفة المتدخلة في تكوين الدّات المنتجة للخطاب » (العمري، 2012)؛ محاولاً إيجاد بلاغة تأثير وإقناع وذلك بدمج بين معطيات الجانب الشّعري البديعي الّذي يقوم أساساً على دراسة الصّور البديعيّة، والجانب الخطابي المنطقي والّذي يركّز اهتمامه على طريق الإقناع وبناء الحجج في الخطاب، حيث يقول « علم الخطاب الاجتماعي الهادف إلى التّأثير والإقناع أو هما معاً إيهاما وتصديقا » (العمري، 2012، صفحة 6).

كما قام محمد العمري بتقديم تعريف للبلاغة يحدّد - حسب رأيه - مركز البلاغة وعاصمتها ومنطلق إشعاعها حيث قال: « إن لم أجدراً على القول بأنّي وجدت البلاغة من خلال التّعريف النّسقي الّذي قدّمته لها باعتبارها " العلم الذي يتناول الخطاب الاحتمالي المؤثّر " فسأقول أنّي وجدت صفتها ونعتها والطّريق الموصلة إليها. أمّا الحدود الفاصلة بينها وبين الخطابين الحافّين بها من أعلاها وأسفلها فتتطلب اجتهادات وتدقيقات » (العمري، أسئلة البلاغة، في النظرية والتاريخ والقراءة، 2014) حيث تكمن الصعوبة - حسب - في إشكالين: « يتصل أوّلها بمدى دقة تعريف " الاحتمال " حين تقول: يمتدّ الخطاب الاحتمالي بين الهذر في أسفله والبرهان في أعلاه. ومن الهذر كلام السكاري والمجانين، ولكن أليس للمجانين مجال للتخيّل الفني » (العمري، أسئلة البلاغة، في النظرية والتاريخ والقراءة، 2014).

أراد العمري من خلال كلامه عن الاحتمال بيان المفاوت الإبداعيّة من شخص إلى شخص آخر في الخطاب الاحتمالي فقد يتكلّم جلّ النّاس إلّا أنّهم متفاوتون في اختيّر العبارات المناسبة في تعبيراتهم، فمنهم من يأتي بأجمل الكلام والبرهان ليقوّي حجّته فيكون كلامه مقنع ومنهم من يتكلّم بتلقائيّة وصدق مع احتمال الكذب فكلّ قد يصل إلى المتلقّي حسب القدرة في إنتاج الكلام.

ويتصل الإشكال الثاني بمفهوم "الأثر" فالأثر يمتد في سلم تنازلي من الاضطراب بالحجة في أعلاه إلى الانقياد بلا روية في وسطه إلى مجرد الاستشعار الخفي من خلال مؤشرات غاية في الخفاء في أدناه. فالأثر يقتضي وجود المعنى والمعنى ينزل في بعض الشعر إلى درجة التلاشي حيث لا يبقى أكثر من مؤشرات جنس الخطاب في مواجهة المتلقي « (جلال، 2016، صفحة 117) ، ونحن حسبنا بحاجة إلى فهم هاذين الإشكالين وتفهمهما.

لقد ذكر جميل حمداوي في تعريفه للبلاغة الجديدة أنها : " مختلفة عن البلاغة الكلاسيكية القديمة اتسمت بطابعها المعياري التعليمي، مع بيان قواعده واستخلاص بنياته ودلالاته ووظائفه التداولية الحجاجية." (حمداوي) ما عرفت البلاغة عدة اتجاهات اهتمت بشكل من الأشكال بالبعد البلاغي ونذكرها كالآتي:

1. " الاتجاه اللساني : بلاغة الصورة والخطاب
2. الاتجاه الأسلوبي : تعني للدلالة على طريقة الكتابة أو فن الكتابة وصيغ تأليف النصوص
3. الاتجاه السيميائي: تهتم ببلاغة الصورة الإشهارية تستوحيه من التركيز على دراسة الرسالة اللغوية
4. الاتجاه الحجاجي : وهنا نتحدث عن البلاغة الجديدة أو البلاغة الحجاجية والتي تأسست مع رجل القانون التشيكي شايم بيرلمان Chain Perlman – واللسانية البلجيكية: لوسي تيتيكا – lucie olbrechts-tyteca – حين أصدرنا معا كتابهما الوجيز في الحجاج (البلاغة الجديد) (حمداوي، الصفحات 8-13-15-22)، traité de l'argumentation : la nouvelle rhétorique (حمداوي، صفحة 16)

وعاد الحجاج عند البلاغيين الجدد يستعمل آليات وتقنيات بلاغية ومنطقية، أي "محمل الاستراتيجيات التي يستعملها المتكلم من أجل إقناع مخاطبه" (حمداوي، صفحة 16). وقد ركز بيرلمان كثيرا على مبدئين وهما: "القصد والمقام، حيث يمكننا الاستفادة من هذا التصور الحجاجي التقليدي وهذا يساعدنا على اكتساب خبرة منهجية دقيقة في تحليل النصوص ذات طبيعة حجاجية بناء على تصور تفاعلي بين الذات المتكلمة والمخاطبين، فلا بد حجاجيا من مراعاة المقام" (جلال، 2016، صفحة 108).

حيث يكون الإبداع الحجاجي مراعيًا للمقام باستعمال عدة أدوات استدلالية تقوي الكلام فتجعله مقنعا حتى يزيل الشك والغموض عن السامع، كما جدد بيرلمان آراء أرسطو التي تركز على الجانب الإقناعي للبلاغة؛ حينما تفاعل مع أنموذجه: " فأفرز نموذجا جديدا أيضا أكد فيه على الوجه المعقول وليس الوجداني فيما يخص بناء اللغة الحجاجية بحيث رأى

البلاغة العربية قديما وحديثا قراءة معاصرة في النشأة والتطور في الدرس العربي والغربي

أن الاستمالة تتحقق بفعل استدلالي منطقي قابل للاختيار والتّمحيص من قبل المتلقّي، ومن هنا يمكننا أن نقارن بين نظرة الجاحظ ونظريّة بيرلمان، فإذا كان الجاحظ قد اعتمد أساسا على المنطوق؛ فإنّ بيرلمان جعل الخطاب المكتوب موضوعا له، وإذا كانت غاية الجاحظ هي استمالة القلوب فإن غاية بيرلمان هي استمالة العقول، وإذا كانت السّبيل إلى ذلك عند الجاحظ هي الصّوت والإشارة فإنّ بيرلمان قد اختار الحجّة المعقولة" (جلال، 2016، صفحة 110).

وهذا فالخطابات الحجاجيّة تفسح المجال للغة البشريّة وتوسّعه حيث: "لا يتوقف مفعولها عند حدّ إثارة المشاعر والانفعالات، بل يتعدى ذلك لتستحيل اللّغة إلى نسق من الحجج المنطقيّة المعقولة الّتي تحتوي عقل المتلقي" (جلال، 2016، صفحة 108). فالحجاج عند بيرلمان: "مرتبط بالإقناع الّذي يؤدّي بدوره إلى غاية أسمى تتجلى في تحقيق الحرّيّة الإنسانيّة (العمرى، البلاغة الجديدة بين التّخيل والتداول، 2012)، فهذا التّواصل بين المتكلّم والسّامع والمتمثّل في الرّسالة التي تربط بينهما إنّما يظهر مفاده عند اقتناع السّامع وموافقته -بعد رضاه عن الحجّة- على الكلام الصّادر عن ملقيه حتّى يتم الوصول إلى الحقيقة.

وفي الأخير؛ يمكننا القول أن مجهودات محمد العمرى وأمثاله من المعاصرين الّذين أحاطوا بالبلاغة فقرءوا التراث وسأروا الدرس الجديد، قد أناروا الفكر المعاصر العربي. بهدف الوقوف بأصل البلاغة العربيّة بآليات تكشف عن ثرائها.

1 إشكاليات الاصطلاح بين الدرس العربي والغربي.

إنّ ما يثير انتباه متتبع مسار تجديد البلاغة هو تحوّل مفهوم هذا الاصطلاح سواء في الدّرس العربي، وذكر العمرى: "أن كلمة بلاغة ربما لا تطرح في السياق العربي إشكال في كونها علم الخطاب الاحتمالي بنوعيه التّحليلي والتّداولي، حيث ظلّ شعار الوحدة البلاغيّة مرفوعا" (العمرى، البلاغة الجديدة بين التّخيل والتداول، 2012، الصفحات 11-12) أمّا في الدّرس الغربي فيرى العمرى: "أنّ الكلمة المقابلة لكلمة بلاغة العربيّة تتردّد بين ثلاثة مفاهيم كبرى وهي:

1. المفهوم الأرسطي: الّذي يخصّصها لمجال الإقناع والآليات.
2. المفهوم الأدبي: الّذي يجعلها بحثا في صور الأسلوب.
3. المفهوم النّسقي: الّذي يسعى لجعل البلاغة علما أعلى يشمل التّخيل والحجاج معا" (الغزافي، أصدرت لأول مرة في سبتمبر 1998. تاريخ اصدار المقال 28 - فيفري 2014 م).

فسعى في الخروج إلى مفهوم يجمع هذه المفاهيم في نقطة تقاطع تجعل البلاغة اصطلاحا محددا قد يكون حلا راجحا لبناء النّسق المعرفي لها.

2 تحولات في مفهوم البلاغة.

لقد نشأ مفهوم البلاغة بين الدلالة المزدوجة لاصطلاح Rhétorique في التقليد البلاغي الغربي حيث: "يتقصّد بتحسين التعبير من جهة ويتقصّد الإقناع من جهة أخرى بقوة الحجة والاستدلال على الخطاب" (الغزافي)، أصدرت لأول مرة في سبتمبر 1998. تاريخ اصدار المقال 28 - فيفري 2014 م).، ويكمن الإشكال في البحث عن هذا المفهوم عند "ترجمة مصطلح Rhétorique ب: "البلاغة" أم "الخطابة" أو بهما معا" (ص، 2003، صفحة 12)، كما فعل بعض المعاصرين من أمثال محمد الولي وعائشة جرير في مقدّمة ترجمتها لكتاب (البلاغة مدخل لدراسة الصور البيانية)؛ حيث ذكرا: «ينبغي قبل الانتقال إلى تأطير - الصّور البيانية ضمن الأدوات التعبيرية الفنية، أن نلقي الضّوء على مصير صرح البلاغة، الخطابة» (الغزافي، أصدرت لأول مرة في سبتمبر 1998. تاريخ اصدار المقال 28 - فيفري 2014 م).؛ أي الكشف عن مفهوم البلاغة وتحديدده في التّقاليد الغربيّة؛ أمّا بالنّسبة للمترجمين العرب: "فقد قابلوا هذا الاصطلاح - بلاغة - بالخطابة، منطلقين في ذلك باعتبار الجانب التّداولي في تسمية بلاغة التي يصلها بالإقناع. كما نظر الدّين ترجموا الاصطلاح ب "البلاغة" إلى الجانب المتعلّق بالبعد الأسلوبّي الشّعريّ فيها بكونها بحث في صور التّعبير" (ص، 2003، صفحة 12)، حيث ذهب إلى أن البلاغة بعدما كانت معرفة خاصة بالأجناس الثّلاثة للخطاب في الإبستمولوجية الإرسطية (القضائي - الاستشعاري والاحتمالي) (الغزافي، أصدرت لأول مرة في سبتمبر 1998. تاريخ اصدار المقال 28 - فيفري 2014 م).؛ فوقع خلل في التوازن بين هذه الأجناس الثّلاثة للخطاب.

وهكذا فإنّ البلاغة باعتبارها علما اختزل بالبحث في الأسلوب والعبارة أصبحت معرفة تشغل بوصف وتفسير مختلف الأنماط الخطابيّة (القصة - المسرح - الخطاب : السياسي ، الدّيني ، والنّص الإشهاري ...) (الغزافي)؛ إلّا أنّ بعض القدماء من المترجمين العرب من احتفظ للاصطلاح بلفظه الأجنبي (الريطوريقا)، حيث أخذ هذا الاصطلاح من آثار أرسطو - حينما دخل كتاب الخطابة، أو -فن الخطابة - إلى التّراث العربي قرابة القرن الثّالث الهجري وقد ذكرها ابن النديم في الفهرست فقال: «الكلام عن الريطوريقا ومعناها الخطابة» (الفهرست، 2009).

3 البلاغة في التقليد الغربي:

يمكننا التمييز إذا ما استثمرنا المسرد التاريخي الذي أعده "بارت رولان" حول البلاغة القديمة ثلاثة معان تعاقبت على اصطلاح "بلاغة" كما تبلور في التقليد الغربي: «البلاغة مبحث قديم وجهته الإقناع، أو البلاغة مجموعة من صور التعبير قصدها الإمتاع أو البلاغة تقنية قابلة للتدريس» (برت، 1984). يعتبر المعنيان الأوّل والثّاني في رأي مصطفى الغزافي رئيسيين أمّا الثّالث فعارض وثانوي يرتبط بمرحلة انكماش البلاغة وتقوقعها على نفسها عبر تاريخ طويل من الإختزال، انتقلت من خلاله من نظريّة في الخطاب إلى نظريّة في الاستعارة وقد ترتّب عن ذلك طغيان المقصديّة التّعليمية عن هذا العلم العتيق، بحيث لم يعد تدريس البلاغة يتم باعتباره مادة من

البلاغة العربية قديما وحديثا قراءة معاصرة في النشأة والتطور في الدرس العربي والغربي
المواد ولكن بوصفه سلكا للدراسات" (الغزافي، أصدرت لأول مرة في سبتمبر 1998. تاريخ اصدار
المقال 28 – فيفري 2014 م.)

4 البلاغة في السياق العربي :

إنّ فهم مصطلح " بلاغة " النّاتج عن تشغيله في نظام البلاغة القديمة قد يشكل على الباحث في البلاغة العربية نظرا لتداخل مباحث بلاغيّة رئيسيّة استبدلت بالدرس البلاغي العربي وهي: (البيان – البديع، الفصاحة والبلاغة)، ولذلك :«لا تجد تحديدا واحدا جامعا وشاملا حصل عليه الاتفاق في المدونة العربيّة البلاغيّة لتعيين المقصود بتسميّة " بلاغة " » (الغزافي، أصدرت لأول مرة في سبتمبر 1998. تاريخ اصدار المقال 28 – فيفري 2014 م.). ولعلّ أكثر ما يعيق الباحث في دراسته مواجهته لمشكل ضبط المفهوم وتحديد استعمالاته وذلك من خلال تتبّعه المسار الذي سلكته البلاغة العربيّة.

والتّحولات التي رافقت هذا الاصطلاح حيث :« يستطيع المتنبّع لتاريخ البلاغة العربيّة أن يلاحظ أن اصطلاح بلاغة لم يهيم إلّا في العصور المتأخّرة ، وقد كان الاسم الشّائع بين المشتغلين بالدراسات البلاغيّة هو " البيان " " علم البديع " و " علم البلاغة " ، كما أنّ هذه الحيرة الاصطلاحية وعدم الاستقرار المفهومي يعتريان ترجمة هذا المصطلح فيريكان بالتّالي عموم القراء بل وجمهور الدّارسين من غير المتخصّصين، حيث اقترح محمّد العمري ترجمة ريطوريقا الأرسطيّة بلفظة " خطابيّة " قياسا على " شعريّة " التي بسطت سلطتها على مجال التّخييل وكان قد استعمل من قبل عبارة " الخطاب الإقناعي " لتأديّة المعنى الذي يمكن أن تفيده كلمة Rhétorique الغربيّة والأمر الجوهري في الخطابيّة الأرسطيّة وبلاغة الحجاج عامّة هو الاحتكام إلى المستمعات، إذ يظلّ هدف الحجاج هو الإقناع » (الغزافي، أصدرت لأول مرة في سبتمبر 1998. تاريخ اصدار المقال 28 – فيفري 2014 م.) ونستطيع في الأخير أن نختم بما توصّل إليه محمد الغزافي في

مقاله حيث قال : « إذا كان من طوابع البلاغة الغربيّة فصلها بين الشعريّة poetica و الخطابة Rhétorica فإن البلاغة العربيّة لم تعرف في تاريخها الطّويل مثل هذا الفصل فقد كانت البلاغة العربيّة منذ نشأتها بلاغة عامّة موضوعها الخطاب الاحتمالي بنوعيه: التّخيليّ الشعري والتّداولي الخطابي » (الغزافي، أصدرت لأول مرة في سبتمبر 1998. تاريخ اصدار المقال 28 – فيفري 2014 م.)

قائمة المراجع:

ابن النديم، الفهرست. (2009). تحقيق: أيمن فؤاد سيد،. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث
الاسلامي المجلد:2.

ابن خلدون. (2004). تحقيق محمد درويش. لبنان: دار يعرب.

محمد بشيرباي

- جميل حمداوي. (بلا تاريخ). من البلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة. حمادي صمود. (1981). التفكير البلاغي عند العرب. منشورات الجامعة التونسية، الصفحات 114-113.
- رولان برت،. (1984). البلاغة القديمة، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي. المغرب: نشر الفنك للغة العربية،.
- سعيد الكملي. (2017). شرح الجوهر المكنون لعبد الرحمن الاخضري دورة علمية في البلاغة. سورة المدثر الاية 24. (بلا تاريخ).
- شوقي ضيف. (1995). البلاغة تطور وتاريخ. الاسكندرية القاهرة: دار المعارف.
- عبد المتعالى الصعيدي. (1991). البلاغة العالية. القاهرة: مكتبة الاداب.
- فرانسو مورو ص. (2003). البلاغة. تأليف مدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة: محمد الولي وعائشة جرير. المغرب: دار افريقيا الشرق.
- مازن المبارك. (1968). الموجز في تاريخ البلاغة. بيروت: دار الفكر.
- محمد العمري. (2012). البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول. المغرب: دار افريقيا الشرق.
- محمد العمري. (2014). أسئلة البلاغة ، في النظرية والتاريخ والقراءة. المغرب: إدريس جبري في الإتحاد الاشتراكي.
- مصطفى جلال. (27 سبتمبر، 2016). ، قراءة في تلقي البلاغيين العرب للبلاغة الجديدة في العصر الحديث (حمادي صمود ومحمد العمري نموذجاً). العربية والترجمة إصدار: المنظمة العربية للترجمة، 123.
- مصطفى الغرافي. (بلا تاريخ). : " عن البلاغة ". ديوان.
- مصطفى الغرافي. (أصدرت لأول مرة في سبتمبر 1998. تاريخ اصدار المقال 28 -فيفري 2014 م.). مجلة: ديوان العرب.